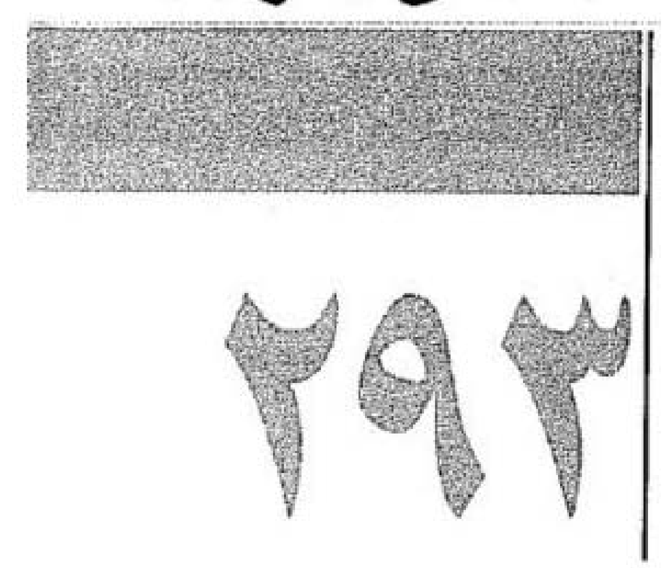


من الاستشراق إلى العولمة فرنسيس فوكوياما أنموذجاً

د. نذير العظمة(*)

حضارتنا العربية الإسلامية هي وارثة للأديان التوحيدية من جهة العقيدة، والعلوم والفلسفة والطب والمعمار والتشريع والإدارة والشعر والفن، من جهة الحضارة الإغريقية والرومان والفرس والهنود.

فأوروبا كما جاء في تحولات أوفيد هي أخت قدموس التي اختطفها الغاليون وسميت أوروبا باسمها وقدموس في رحلته لاسترداد أخته نشر هنالك حضارتنا وأبجديتنا التي أضاءت مدن البحر المتوسط وموانئه بأنوار المعرفة الكنعانية.

(*) د. نذير العظمة: كاتب وشاعر وباحث وأستاذ جامعي ومترجم سوري.

- العمل الفني: الفنان أكثم عبد الحميد.

وأوروبا النهضة رضعت حليب المعرفة من أثداء الحضارة الأندلسية وصقلية وجنوبي إيطاليا في مقدمتها العلوم الدينية والفلسفة والهندسة والرياضيات والجبر والطب والشعر.

فالذات العربية والآخر الأوروبي أو الغربي يشكلان صورة متكاملة.

أياً ما كان، فإن الاستشراق نظام معرفي يتناول الشرق كما يتناول الغربيون غربهم من جهة العلوم بشقيها الإنساني والطبيعي. وبهذا يخضع الشرق إلى نظام معرفي غربي متكامل في الجوهر والمنهج، فيتحول الشرق معرفياً إلى ثقافة الغرب وحضارته.

ومع اختلاف الاستشراق الفرنسي والبريطاني عن الألماني والإسباني والروسي في عدالة النظر إلى الشرق إلا أن هذا لا يغير المناهج المرتبطة بنظام معرفي متكامل واستراتيجية المعرفة والقوة.

لكن الاستشراق تحول إلى مؤسسة معرفية. وظفها الاستعمار لتبرير طموحاته التوسعية والإمبريالية، وتنظيم المعارف الاستشراقية وتوسيعها في اتجاه هذه الطموحات برعاية الدولة وأجهزتها المختلفة وزارات خارجية، مخابرات، ومؤسسات المستعمرات.

فالعلاقة جدلية ما بين السلطة والمعرفة، المعرفة قوة تؤدي إلى السلطة، والسلطة قوة تؤدي إلى المعرفة.

الانتقال من الاستشراق إلى العولمة جاء طبيعياً من حيث التطور إذا تذكرنا دور الاستشراق الأدائي في انتشار الاستعمار وإفريقيا وقبلهما العالم الجديد وقبل كل شيء في عالمنا العربي والإسلامي.

فالحلقة: استشراق استعمار/استعمار استشراق/ استشراق تبشير/ تبشير استشراق لا تختلف عن حلقة إمبريالية عولمة /عولمة إمبريالية/.

هذه الوجهات الفكرية للحضارة الغربية التي تؤمن بعقيدة الديمقراطية الاقتصادية الليبرالية هي بمجملها تقوم على قاعدة المعرفة العلمية وشهوة السيطرة قاسمها المشترك جميعاً.

القراءات الاستشراقية للشرق كنص تتجلى على ثلاثة مستويات. ١- النص ب- تفسير النص وتأويله ج- الموقف من النص.

سير هاملتون جب المستشرق البريطاني



يقول: إن الإسلام هو بمثابة مثلث دين، ودولة، وحضارة إن أي عبث بواحد من هذه الأضلاع هو عبث بالمثلث ككل.

جب يذهب إلى القول إن الإسلام نظام متكامل عقدي سياسي حضاري، لكنه لا يبدي هنا أي رأي في التعايش أو عدم التعايش معه ولا يتخذ موقفاً من ذلك:

أما كلود ليفي شتراوس فيقول: إن الإسلام نظام متكامل لا يتعايش مع بقية الأنظمة، نظام لا يقبل المساومة.

لكن فرنسيس فوكوياما لا يذهب إلى تفسير الإسلام كنص وتأويله من علاقته مع الأنظمة الأخرى فحسب بل يتخذ موقفاً وموقفاً معادياً منه حينما يحرض عليه.. بالقول: إن الخطر على العولمة وانتصار الديمقراطية الليبرالية سيأتي من الإسلام.. لأنه نظام لا يتعايش في زعم فوكوياما مع الأنظمة الأخرى.. فهو إذن ضد التقدم والتعاون والتكامل والحرية.. وهو مصدر قلق وخطر على الإنجاز العولمي الجديد.

في علاقة غرب شرق. أو مسيحية غربية إسلام عبّر دانتي في كوميدياه. الإلهية عن عقلية أوروبا النصرانية في النظر إلى الإسلام في القرون الوسطى

كانشقاق عن المسيحية، المحيط عن المركز، أو كهرطقة والأصل هو النصرانية، هذه المركزية الدينية تسربت فيما بعد إلى المركزية الحضارية الأوروبية ودعواها في حق الانتداب لتمدين الشرق المتخلف، ويستخدم دانتي Selisrn أو HERESY لوصف الإسلام بانفصاله عن الأصل الذي آل إلى المركز الذي تشكله أوروبا المسيحية.

فيضع دانتي محمد (صلعم) وعلي في الدائرة الثامنة من الجحيم يبكي بمرارة على علي الذي ضربته الشريانية في النار بالسيف فقسمت رأسه إلى نصفين من الذقن إلى طبلة الرأس فيعبر دانتي بالصورة الشعرية عن الانشقاق والهرطقة.

وقد وضع دانتي ابن سينا وابن رشد مع كبار الفلاسفة الإغريق لحيازة فضيلة المعرفة لا النعمة السماوية في الليبو خارج الجحيم لا في الجنه ولا في النار كما وضع صلاح الدين الأيوبي لحيازته الفضائل الأخلاقية في عفوه عن فرسان بيت المقدس بعد انتصاره عليهم وفتح طريق آمن لهم إلى عكا.

أوروبا النصرانية لم تخف إعجابها بالحضارة الإسلامية ولكنها في القرون الوسطى غالباً ما نظرت إلى شخصية الرسول العربي وعقيدته الدينية نظرة جائرة متحيزة. وقد ورث الاستشراق هذا الإعجاب وهذا التحيز في آن معاً. والعولمة اليوم ما تزال تحمل في طياتها هذا الإيدز بتحديدها الإسلام لا الديانة كخطر وحيد على انتصار الليبرالية الديمقراطية كما يزعم فوكوياما.

يعتقد السير هاملتون جب أن هناك في تاريخ الحضارة رينسانس إسلامي استمر من القرن التاسع حتى القرن الثاني عشر للميلاد، وعبد الطريق للرينسانس الأوروبي الذي استعان بإنجازات الفلسفة والطب والعلوم والفنون التي وصل إليها العرب «دراسات في الحضارة الإسلامية» لجب.

ومن المتعاطفين مع الحضارة العربيه الإسلامية من يعتقد أن هذه النهضة أو الرينسانس في الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا إنما تمت على أيدي «أوروبيين عرب». وهذا ما ذهبت إليه المستشرقة ماريا روزا موتيكال في كتابها: الدور العربي في التاريخ الأوروبي للقرون الوسطى.

وقد ذهب آسين بلا سيوس المستشرق الإسباني إلى أبعد من ذلك في كتابه «الإسلام والكوميديا الإلهية» لدانتي

الألجيري في دراسة نصوصية لعلاقة هذه الملحمة الأوروبية الإيطالية التي تعدّ حجر الزاوية في الإرث الغربي وثقافته وأدبه. واعتقد بلاسيوس أن دانتي مدين للمصادر العربية والإسلامية في ملحمته هذه لا من حيث الإطار والمعمار الفني فحسب بل في الصور الجزئية.

وجاء بعده خوزي مونيز ستدينو في إسبانيا وأنريكو تشيرولي في إيطاليا واكتشف كل منهم على حدة مخطوطات لقصة الإسراء والمعراج في الفاتيكان وفرنسا وانجلترة لترجمة النسخة لهذه القصة إلى اللغات اللاتينية والفرنسية والقشتالية (١٢٦٤م) برعاية ألفونسو العاشر في إشبيلية وقرطبة أي قبل أن يتم دانتي ملحمته بأربعين عاماً.

فدين أوروبا والنهضة الأوروبية للحضارة العربية الإسلامية لا ينحصر في الفلسفة والعلوم بل يتعدى ذلك إلى الآداب والفنون. وقد نشر كل منهما اكتشافه ومرئياته في كتاب منفصل (١٩٤٧م).

وإذا توغلنا في التاريخ إلى ما قبل الزمن الكنعاني في الـ METAMORPH-SISكتاب التحولات للشاعر الروماني أوفيد أن أوروبا حصلت على اسمها من أخت قدموس الفينيقي الذي أبحر ليسترجع أخته من خاطفيها الغاليين وفي طريقه إلى هناك نشر ثقافته وأبجديته في المدن الغربية.

كل هذا يقودنا إلى القول: إن هناك حضارة إنسانية واحدة شيدتها الأمم جميعاً بخصوصيات قومية. واللاحق يأخذ من السابق ويبنى عليه. التنافس الحضاري في شتى المجالات مشروع بين الأمم،ولكن العدوان هو المدمر الهازم للإنسان والحضارة.

أن نسوغ العدوان والوحشية اللذين استخدما القوة في تصفية بعض الحضارات في أمريكا وإفريقيا وآسيا يقربنا من العقيدة النازية والأفكار العنصرية التي حاربها العالم أجمع مهما كان الإنجاز المعرفي والاقتصادي والسياسي عالياً.

الإنسان والحرية والمعرفة هذه هي أسس الحضارة التي لا تقبل المساومة. وهذا يستدعي أن تنتصر الحضارات الجارحة في الأزمنة الحديثة على أطماع السيطرة وهيمنة شهوة القوة وكنز الثروات. إن الديمقراطية الليبرالية إذا حصرت انتصاراتها في قيم السوق خارج الإنسان

وقيمه، كالماركسية التي عولت على انتصاراتها في التصنيع والتقدم والنازية التي اعتدت بقوتها وعنصريتها وإنجازها التكنولوجي، لكن إهمال الإنسان والحرية واحتكار المعرفة سيؤدي بالحضارة إلى درب مسدود. إن سيطرة العنصرية أو القوة العسكرية أو كلاهما معاً أهون من سيطرة الرأسمال على البشر. والعدو البيّن الظاهر للإنسان أسهل مقاومة من العدو المستتر الخفي.

الحكم الذي يتشبث به فرنسيس فوكوياما بأن الديمقراطية الليبرالية هي نهاية التاريخ غير مقنع علمياً ولا فلسفياً. وفكره السياسي لا يبدو على مستوى واحد من الوثوقية. يعتَبر أن الإسلام يشكل تهديداً محتملاً لإنجاز الغرب الاقتصادي السياسي والثقافي. ويقحم التأويل الفلسفي على استقراءاته للتطورات التاريخية.فانتصار الديمقراطية الليبرالية وانتقاء ما ينافسها يعطل -في رأيه- ديالكتيك هيغل، ويبطل حركته واستمراره. ويعلن نهاية التاريخ.

إن انتصار الديمقراطية الليبرالية وقيم السوق المؤيد بالعلم وسلطة المال والتقنية والمعلوماتية يؤدي في زعمه بديالكتيك هيغل إلى نهايته ويسلم تاريخ الإنسانية مقاليده إلى عصر العولمة دون منازع. ولكنها عولمة تلغي السيادة القومية. وتقصي الثقافة. وتحجز الإنسان والحرية في فخ الربح والخسارة. وتتسبب بتلويث الغذاء والماء والهواء.

فوكومايا لا يفصح عن مقاصده الاستراتيجية صراحة، وعلينا نحن أن نستشف هذه المقاصد من وراء أقنعته المتعددة الفلسفية والاقتصادية والسياسية، ونستكشف الناظم الفكري لمفهوم نهاية التاريخ عنده ودلالاته الإيديولوجية والاستراتيجية. ويضيف فوكوياما إلى التقسيمات المتحيزة جغرافيا شمال جنوب للعالم ومتحيزة اقتصادياً فقراء أغنياء وعالم أول وثاني وثالث وعالم ناضج مكتمل وعالم نامٍ، يضيف فوكومايا تقسيماً بل تصنيفاً فلسفياً يستحق الوقوف عنده. ألا وهو عالم خارج صراعات التاريخ والذي وصل إلى فردوس الليبرالية الديمقراطية.

إن قيم السوق العقلانية العلمية كفته النزاعات والصراع التاريخي انتهى هناك. وعالم ما يزال خاضعاً للصراعات إياها. وهو بالطبع العالم القديم نفسه الجنوب، وغير النامي، وعالم الفقراء خارج التكنولوجيا وتجليات العلوم الحديثة في

الاقتصاد والسياسية، وخارج الفردوس الليبرالي الديمقراطي وهو تقسيم مع أنه يوحي بدلالات التقسيمات القديمة إلا أنه يضيف تحيزاً فلسفياً آخر إلى تحيزاتها المعهودة. وهو عالم الاضطراب والتمرد والثورة، الذي يؤرق سلام الفردوس من الناجز.

ودون تقسيم كهذا لا تستقيم أحكام فوكوياما بموت التاريخ ونهاية الإنسان الأخير لأن أحكامه المستنبطة من عالم الحرب الباردة تعني بالمتصارعين الجبارين وانتصار الواحد على الآخر لا العالم كله كما يقتضيه الفكر الفلسفي.

وهكذا فإن مشكلة الشرق العربي مع أوروبا الصناعية ووريثتها الولايات المتحدة متعددة الجوانب.

فهناك ذاكرة حروب الفرنجة المسماة خطأ بحرب الصليب والتي اندلعت زوراً باسمه. لأنها دمرت مسيحية الشرق كما دمرت المدن الإسلامية. وهذه الذاكرة على الطرفين ما تزال مبعث اختلال توازن وسوء تقدير. وهناك اليوم من يريد أن يدمر لا الشرق المسلم بل الشرق المسيحي أيضاً.

وهناك ما هو أخطر المتمثل بالواقع الحضاري لهذا الشرق العربي المبتلى بالفراغ السياسي والمعرفي، والأمم بعلاقات القوة كالأواني المستطرقة القوي يملأ فراغ الضعيف والعالم العارف يستولي على الجاهل. هذا الفراغ ملأته أوروبا منذ نابليون وتملأه اليوم الولايات المتحدة بالانتداب ثم بالعولمة.

ومع هذا النقص هناك الثروات الطبيعه كالنفط ومخزونه الهائل في المنطقة العربية وحاجتها إلى المعرفة العلمية والتكنولوجية لا ستخراجه وتسويقه والاستفادة منه. والثروات في التحليل الأخير وفي عرف الغرب هي ملك لمن يتقن استخراجها وإدارتها. ومن يحتاجها حيوياً وصناعة. وما يستتبع ذلك من سوق استهلاكية ضرورية وزيادة الأرباح بتخفيض تكاليف الإنتاج بواسطة الأيدي الشرقية البائسة. في الأمس الانتداب واليوم العولمة وفي الغد أنظمة أخرى حتى نصوغ أنفسنا بالوعي التاريخي أمة موحدة قادرة. والحل الأساسي بالدرجة الأولى حل معرفي وحضاري وسياسي وإنساني. نحن والآخر في مأزق حضاري واحد مشترك.

